الفصل الخامس

الأسلوب الخطابي

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

أسلوب الخطبة وأسلوب المقال

يتدرج العمل الفني في ثلاثة ادوار هي :

أ. الايجاد – والمراد بالايجاد هو التفكير لاستنباط المعاني .

ب. التنسيق – والمراد بالتنسيق أي تنظيم المعاني وترتيبها .

ج. التعبير – أما التعبير فهو أبراز هذه المعاني بأسلوب ملائم لها، وللسامعين وللمتكلم:

١– ملائم لها، لان الموضوعات تختلف، فالخطبة الحربية تلائمها الكلمات القوية الحماسية، والصور الخيالية، والخطبة القضائية يوائمها الاسلوب المتزن، وخطبة التأبين يشاكلها الاسلوب المتفجع وهكذا.

٢–وملائم للسامعين، فيتأنف الخطيب في خطبته للخاصة ويَعدِلُ الى السذاجة مع العامة، ويطنب في الجمع المستكثر المستزيد، ويوجز في الجمع المؤثرِ للاقلال وهكذا .

٣–وملائم لحال الخطيب نفسه من بهجة أو أسى، ومن غضب أو رضا، ومن انتقام او رحمة. والكتابة والخطابة تشتركان في الاجادة، والتنسيق، ولكنهما تختلفان في التعبير، لأن تعبير الخطيب خاضع لذوقه، وما يدعو إليه المقام من تقصير الجمل أو تطويلها، ومن تكرار أو إيماء وانتقاء للالفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع، او التحليق في سماء الخيال حيناً، وإيثار النكتة حيناً آخر مع الاشارة، والحركة ونبرات الصوت، ونفوذ الخطيب وغيرها مما يتطلبه فن الخطابة ثم لابد في اسلوب الخطبة من الوضوح والسهولة. أما تعبير الكاتب فقيه تروٍ وتأنق وتصعيب احيانا، لان للقراء فسحة من الوقت يفكرون فيها في معنى ما استغلق، ويكررون تلاوته. فلا ضير أن يُصعَّب الكاتب ويُعلل ويُحلل، أما الخطيب فإنه يقذف بكلماته فيتلقاها الجمع بسرعة لا تُيسّر له مراجعتها او التوقف لتفهما، لانه مضطر الى متابعة الخطيب وتلقف ما يقول فإذا توقف للتفهم انقطعت صلته

بالخطيب، فضاعت قيمة الخطبة، وكثيراً ما ينزل التعبير الخطابي عن مكانة التعبير الكتابي في جودة المبنى ودقة المعنى، ولكنه يستعيض عن هذا النزول مؤثرات أُخَر من فصاحة النُطق، وجهارة الصوت، واجادة الاداء، وروعة الموقف. ولهذا فإن بعض الخطب مسموعة ذات أثر قوي عميق في نفوس سامعيها ولكنها مقروءة لاشيء من الامتياز فيها. والكلمات هي اللَّبِنَات التي يبنى منها الاديب عمله الفني، فهي كالدِّهان في فِرْجوْن الرسام، وللآليء في أنامل اللآل، والأحجار في يد البنّاء والصخور في محفر النحّات، والألحان في بنان الموسيقار. والاديب يستطيع بمواهبه وسعة حيلته أن يصنع منها صورا عدة تمثل العواطف المختلفة تمثيلا كاملا، وذلك برصفها وتأليفها في أسلوب خاص، فإن المفردات التي لا ينتظمها أسلوب لا أثر لها في النفس، وانما يبين أثرها اذا ما صيغت لتصور عاطفة أو تعبر عن فكرة فمثلا بعض الألفاظ فخم رائع يمثل الأنفة والكبرياء مثل الشمم والإباء والعزة، وبعضها ذو دوي يمثل قصف الرعد، وهزيم الريح، وزحف الجند مثل الهجوم، والغضب، والانتقام وبعضها دمث لَيِّن يمثل الاحلام والنسيم العليل والمناجاة مثل الرضا، والصفح ، والرحمة ..، وبعضها قارص لاذع ، وبعضها مستعطف آسر، وبعضها يتقد حماسة وهكذا. والخطيب والاديب عامة يتخير الالفاظ المعبرة عن عاطفته وينتظمها في نسق ملائم للمقام، قال الجاحظ في قوله تعالى ﴿وقيل يا ارض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء، وقضي الامر، واستوت على الجوديّ، وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾[1] أنه اشتمل على الحسن والطلاوة والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الاتيان بمثلها ولا يستطيع افصح الناس مضاهاتها، على ان الفاظها المفردة كثيرة الاستعمال، دائرة على الالسنة، فقوة التركيب، وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الاعجاز .

---

[1] سورة هود آية رقم (٤٤) .

ليست البلاغة[1] ان تُفهم المعنى فحسب، والا لتساوت الركاكة والتعبير والاشارة، والجيد والرديء، والعامي والفصيح، وانما البلاغة رتبة فوق افهام المعنى، رتبة سمكها الامتياز في التعبير، ومطابقته للحال، وان يضفي الخطيب من اسلوب على معانيه حلة من نور، ليتسنى للسامعين ان يتملوا معه جمال رُؤاه، وبراعة خياله، وان يُهدهد قلوبهم او يرج عواطفهم بعبارات موسيقية تخدر فيهم حاسة النقد، وتسكرهم، ثم تأتي كلمة فاصلة منتظمة مدعومة احيانا بنبرة في الصوت او ضربة على المنبر، فتوقظ تلك النفوس من غيبوبتها. قال الجاحظ (ومتى شاكل ابقاك الله- ذلك اللفظ معناه ، واعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدْر لفقا وخرج من سماجة الاستكراه،وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع، وأجدر ان يمنع جانبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعراض العيّابين، والا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة، وحتى كان اللفظ ايضا كريما في نفسه، متحيزا من جنسه، وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد، حُبّب الى النفوس، واتصل بالاذهان والتحم بالعقول، وهشت اليه الاسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على السن الرواة. وشاع في الافاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الريّض. فإن اراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان يعم ولا يخص، وينصح ولا يغش، وكان مشغوفا بأهل الجماعة، شَنِفاً[2] لأهل الاختلاف والفرقة جمعت له الحظوظ من اقطارها، وسيقت اليه القلوب بأزمّتها، وجُمِعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته، وجُبلت على تصويب ارادته ومن اعاره الله من معونته نصيبا، وافرغ عليه من محبته ذَنوباً[3] جلبت اليه المعاني، وسلسَ له نظام اللفظ، فكان قد أغنى المستمع من

---

[1] ينظر: الدكتور محمد أحمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص٤٨- ٤٩.

[2] شنفا بمعنى مبغضا . ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٣٨٤

[3] الذنوب بمعنى الدلو الملأى . ينظر: م . ن ، ص٢٢٤.

كد التكلف واراح قارئ الكتاب من علاج التفهم، ولم اجد في خطب السلف الطيب والاعراب والاقحاح الالفاظ مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعا رَديّا، ولا قولا مُستكرها، واكثر ما نجد في خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن اهل الصنعة المتأدبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب او كان من نتاج التجبير والتفكير[1] فالجاحظ يدعو الى مشاكلة اللفظ للمعنى وللموضوع وللمقام والى بعده من التكلف، والى تخيره. لتتقبله النفوس. وليسلم من الذمة وليس الاسلوب الغني هو التعبير الصحيح عن الفكرة. فان قولنا بغداد عاصمة العراق و(العشرة عُشْر مائة) و(الضوء اسرع من الصوت) هذه تعابير صحيحة عن الفكرة ، ولكنها ليست اساليب ادبية، انما الاسلوب الادبي هو التعبير الصحيح عن فكرة تدفعه عاطفة، فيه شخصية الاديب وخصائص وهذا ما حدا ببعض النقاد الى ان يقولوا: الاسلوب هو الاديب أو الاسلوب هو الرجل نفسه، ولكن النقاد قد اختلفوا منذ زمن بعيد في الاصل الذي يرجع اليه جمال الادب وجلاله، اهو الاسلوب ام المعنى ام هما معا؟

وانقسموا في ذلك الى فرق ثلاث :

١. انتصر فريق للألفاظ والاساليب، وردوا اليها البلاغة وذهب بعضهم الى ان المعاني شائعة مباحة لجميع الناس، فلا شأن لها في البلاغة، بل الشأن في العبارة.

وممن ذهب هذا المذهب ابو هلال العسكري في قوله: (وليس الشان في ايراد المعاني، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صواباً..... ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ ان الخطب الرائعة والاشعار الرائقة، عملت لافهام المعاني فقط لأن الرديء من الالفاظ يقوم

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبين ص ص ٢ــ٧ .

مقام الجيد منها في الافهام وانما يدل على حسن الكلام، واحكام صنعته، ورونق الفاظه وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب معانيه، على فضل قائله وفهم منشية واكثر هذه الاوصاف ترجع الى الالفاظ دون المعاني، ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها، ويغلون في ترتيبها، ليدلوا على براعتهم وحذقهم ببضاعتهم ولو كان الامر في المعاني لطرحوا اكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً، واسقطوا عن انفسهم تعباً طويلاً.

وتبعه ابن رشيق فنقل في كتابه العمدة واكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، سمعت بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ اغلى من المعنى ثمنا، واعظم قيمه واعز مطلبا، فان المعاني موجودة في طباع الناس.

يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الالفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف، ألا ترى لو ان رجلا اراد في المدح تشبيه رجل لما اخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الاقدام بالاسد وفي المضاء بالسيف، وفي العزم بالسيل، وفي الحسن بالشمس، فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاها في اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر واندفع أنصار اللفظ الى دعوى اخرى مبنية على دعواهم الاولى هي ان الجدير بنسبه المعنى اليه من يحسن التبيين عنه وان كان طرقه من قبله فقال ابو هلال العسكري[1] (ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، فاذا فعلوا ذلك فهم احق بهم ممن سبقهم اليها، وسمعت ما قيل ان من اخذ معنى بلفظه كان له سارقاً ومن اخذه فكساه لفظا من عنده اجود من الفاظه كان اولى به ممن تقدمه، أرى من التعسف ان يحفلوا بالاسلوب وحده ، لان تأثرنا بالنص الادبي لا ينشأ عن الالفاظ أصواتا مسموعة، وحروفاً مفردة، وكلمات

---

[1] ينظر : العسكري ، ابو الهلال (ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) كتاب الصناعيين ، تحقيق : علي بيجاوي ومحمد ابو الفضل، دار احياء الكتاب (مصر ١٩٥٢ م) ، ص ١٨٦ .

مجردة وانما ينشأ عن الالفاظ والمعاني من التناسق والملائمة، وعن مشاكلة الكلمة لجارتها، ومواءمة المعنى لما قبله ولما بعده، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال التي يقتضيها الموضوع ونفسية القائل والسامع، والدليل على ان الكلمة تروقنا في موضع وتثقل في موضع اخر فمثلا خطب الامام علي عليه السلام وقد اغار النعمان بن بشير[1] علي عين التمر وامر الامام للناس ان ينهضوا اليه فتثاقلوا فقال (دعوتكم الى نصر اخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسَرّ وتثاقلتم تثاقل النَّضْو الادبر) ثم خرج الى منكم جُنَيد متذائب ضعيف كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون[2])

فكلمة (جرجرتم) ملائمة تمام الملائمة للحال التي قيلت فيها، لان الجرجرة صوت يردده البعير في حنجرته، وأكثر ما يكون ذلك عند التعب والاعياء وهم قد تثاقلوا وتضجروا وانتحلوا المعاذير في اصوات غامضة مبهمة، فصاروا كالجمال التي تجرجر وهي مصابة بداء السَّرَر. ولكن الكلمة نفسها ثقيلة في مثل هذا الموضع: قرأ الامام فجرجر المصلون وراءه. على أن نعت الأسلوب بالجزالة، أو الرقة أو الوضوح أو الرنين وما شاكلها ليس على حقيقته فهذه صفات المعاني، لان المعنى الفخم له لفظ جزل، والمعنى الواضح في ذهن الاديب له اللفظ الواضح الذي لا غموض فيه، ولهذا قال عبد القاهر الجرجاني: فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام

---

[1] النعمان بن بشير :هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الانصاري ابو عبد الله امير ، خطيب شاعر ، من اجلاء الصحابة من اهل المدينة ولّي القضاء بدمشق ثم اصبح واليا على حمص في زمن معاوية بايع لابن الزبير ثم قتل يوم مرج راهط قال سماك بن حرب :كان من اخطب ما سمعت وهو الذي تنسب اليه معرة النعمان (ينظر: ابن الاثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة، جـ٥، ص٢٢ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ج١٠ ص٤٤٧).

[2] ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ص٤٦ ، الجرجرة صوت البعير ، والاسر أي المصاب في زوره والنضو الادبر بمعنى المهزول المصاب بجروح . ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٩٩

يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق وحسن أنيق، وعذب سائغ وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس الحروف والى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده)[1] ثم إن الألفاظ هي التي يملكها الجميع، ويستطيعون أن يمتلكوها وان يحصلوها من الكتب والدواوين والمعاجم والافواه، أما المعاني فهي التي تحتاج الى كد وعناء وتفكير واطلاع وبراعة وابتداع ومقدرة خاصة على التعبير عنها وتصويرها تصويرا فنيا ولهذا اختلفت المعاني تبعا للذكاء والثقافة والبيئة والسن والتجربة والهبة. ومن قرأ دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب ومن نظر فيهما ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران هاهنا في وزن الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها الى ان يستعملها قبل وقتها ويضعها في غير مكانها وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل ان يهيء المعنى عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجر اليه المعنى جرا ويلزقه به لزقا، كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره، وضعه الافصاح عنه الا به. يقول ابن رشيق: (اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته فأذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح وكذلك اذا ضعف المعنى وأختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجربه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدوار الجسوم والارواح، فإذا اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع كما ان الميت لم

---

[1] ينظر : الجرجاني ، ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) أسرار البلاغة ص٣ .

ينقص من شخصه شيء في رأي العين الا انه لا ينتفع به، ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى، لانا لا نجد روحا في غير جسم البتة) وابن وكيع مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة ورأى ان الصورة الحسناء ان لم تقابل بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها، أما الجرجاني فيقرر في كتابيه اسرار البلاغة، ودلائل الاعجاز مرارا أن البلاغة ترجع إلى الملاءمة بين اللفظ والمعنى وتكوين الفاظ على وفق المعاني وما تتطلبه من أسلوب خاص ونسق في ابرازها. ومن التعسف حقا أن يتحاكم بعض النقاد الى اللفظ وحده، وبعضهم الى المعنى وحده وإذا فإن من الصواب النظر إلى الأسلوب والمعنى على أنهما وحدة لا تتجزأ لأن سر البلاغة يرجع إلى روعة المعنى وسموه وتأثيره وطرافته، والى جزالة اللفظ وقوته أو رقته وفصاحته، فليس النص معنى منفصلا عن اللفظ وليس لفظا منفصلا عن المعنى بل هو مزيج من عناصر عدة ، مزيج من الفكرة والعاطفة والخيال والتعبير. ويتبين اتحاد المعنى والأسلوب في أننا إذا غيرنا التعبير تغير المعنى وإذا غيرنا المعنى تغير التعبير، فقولنا لم يحضر الطلاب كلهم غير قولنا كل الطلاب لم يحضروا ، وقوله تعالى ﴿إياك نعبد واياك نستعين﴾[1] غير نعبدك ونستعينك، وقد أحسن العتابي في تشبيه الالفاظ بالاجساد والمعاني بالارواح فأذا قدمت من الالفاظ مؤخرا او اخرت منها مقدما افسدت الصورة، وغيرت المعنى، كما لو جعل رأس الى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية[2]

---

[1] سورة الفاتحة آية رقم (٥).

[2] ينظر : ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين، ص١٥٣ .

المبحث الثاني

خصائص الأسلوب الخطابي

اسلوب الخطابة مستمد من طبيعة هذا الفن الذي يجمع بين الاقناع والاستمالة ، فهو اسلوب تمتزج فيه الادلة التي تكفل الاقناع بالاثارة التي تحقق الاستمالة، لابد ان يكون مُنوَّعا جامعاً تقرير الحقائق واثارة العواطف، يتجه الى الفكر والى الوجدان لينفذ منها الى العزيمة ولذلك تسمى الخطابة الفن العملي، كما تسمى الفن الكامل لجمعه –في الالقاء – بين شخصيتي الخطيب الحسية والمعنوية، ولاستخدامه جميع المواهب للسامعين، فإن الخطيب يستخدم جسمه في الخطابة، فيشير بيديه، ويحرك جسمه ورأسه ويشكل اسارير وجهه، وكل هذه الحركات عنصر هام في التأثير الخطابي، حتى اذا قرئت الخطبة مكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجسماني، مع صوت الخطيب، وحسن القائه، فيذهب شيء من روعتها وقوتها الانشائية[1] ويتسم الأسلوب الخطابي بالخصائص التالية :-

١. **الاطناب** : يتسم الأسلوب الخطابي بالإطناب، وإذا كان الإطناب غير محمود في الأسلوب الكتابي أو العلمي، فإنه محمود في الأسلوب الخطابي، وهو ضروري في الخطابة السياسية والقضائية والحفلية، ولكنه غير مستطاع في الخطابة الحربية، لأنها كلمات محمسة تلقى في الميدان قبيل المعركة، فظروفها تحتم الإنجاز، وقد يضطر الخطيب الديني إلى الإيجاز مراعاة لحالة الجماعة والزمن، كأن يكون المسجد غاصاً بالمصلين في يوم قائظ، أو يكون المصلون من ذوي الأعمال العاجلة، وقد تركوها ريثما يصلون، ولكن هذا لا ينفي أن من خصائص الأسلوب الخطابي الإطناب، لان الإيجاز إنما تقتضيه ظروف وأحوال، فعلى الخطيب ان يراعى للمقام وما يقتضيه من إيجاز أو إطناب فإن استدعى إطنابا

---

[1] ينظر: الشايب ، أحمد ، الاسلوب الخطابي ، ص ٩٤ .

وتفصيلاً أطنب، وان تطلب تقصيراً أوجز، على ان يطيل في غير خطل ولا إملال ويوجز في غير تعمية ولا إخلال. وقديما كان للعرب خطب طوال، وخطب قصار يقول الجاحظ (ثم أعلم إن جميع خطب العرب من أهل البدو والحضر والمدر والوبر على ضربين منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به ،وموضع يحسن فيه) [1] ولكن على الخطيب المطنب ان يكون دائم السيطرة على الجمهور لأنه لا يأمن ملالهم وان نسق عباراته، ونضد معانيه، وأبدع في تصويره بتشويقه ومفاجآته وحسن القائه ، فإن أحس منهم فتوراً ألهب عواطفهم او أوجز قال عبد الله بن مسعود[2] (حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم، فأذا رأيت منهم فَترة فأمسك) وهناك وسائل للاطناب منها

أ- التكرار المعنوي: وهو التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، ليتضح ويقوى تأثيره ولا عيب في هذا التكرار المعنوي إذا ما تغايرت عباراته، مثل قول الحجاج بن يوسف الثقفي: (ايها الناس من اعياه داؤه، فعندي دواؤه ومن استطال أجَله، فعليّ ان أُعَجّله، ومن ثَقُل عليه رأسه، وضعت عنه ثِقله، ومن استطال ماضي عمره قصّرتُ عليه باقيه ..) فهي كلها بمعنى واحد ولكن التعبير مختلف، فكأن لكل جملة معنى جديداً وتهديداً ووعيداً. ولهذا اخالف الجاحظ في ايثاره الايجاز في الخطب اذ يقول (ووجدنا عود القصار اكثر، ورواة العلم الى حفظها

---

[1] ينظر : الجاحظ ، البيان والتبين ، ج٣ ص٦ .

[2] عبد الله بن مسعود : هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ابو عبد الرحمن ، صحابي جليل وهو من أهل مكة وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ومن حفظة القرآن واجودهم قراءة وحفظا وهو خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم له في الصحيحين ٨٤٨ حديثا واورد الجاحظ في كتابه البيان والتبين خطبة له توفي عن عمر نحو ٦٠ عاما في المدينة المنورة ، ينظر: الجاحظ ، البيان والتبين ،ج٢ ص٥٦، ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء وفيه بعض خطبه ، ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج١ ص١٥٤ .

اسرع) [1] وروي ان ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع فلما انصرف اليها قال لها (كيف سمعت كلامي، قالت: ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده. قال اردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت: الى ان يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه) [2] لأن التكرار نوع من الايحاء ولابد منه في الخطابة.

ب- ومن وسائله ايضا التفصيل والشرح وتوليد المعاني ليعمق أثر الخطبة في نفوس سامعيها وهذا ما نراه واضحا وجليا في الخطب السياسية والإطناب بنوعيه هو تكرار معنوي وقد يكون تفصيل للجمل وشرح لها وتوليد للمعاني ليعمق الخطيب المتمكن والمتألق في النفوس أثرها .

٢. **الوضوح** : وكذلك نجد الاسلوب الخطابي يتسم بسهولة العبارة ، ووضوح المعنى لان فهم المعاني أساس الاقناع والاستمالة ولا أعني أن يكون الكلام مبتذلا سوقيا، وشائعا شعبيا، وإنما أريد أن يكون سهلا في قوة، وساميا في وضوح وسهولة، يفهمه أنصاف المتعلمين ولكنهم يعجزون عن الاتيان بمثله، أريد ان يوافق السامعين ويلائم الزمان، ويشاكل البيئة، ويوائم الموضوع وينبىء عن مقدرة الخطيب البيانية، والخطيب البارع من خطب في العامة، وانصاف المتعلمين فرفعهم اليه ولم يهبط هو اليهم. ومن الخطأ أن يعزب الخطيب في اسلوبه ويتسامى في تعبيره تساميا يغلق معانية على السامعين ذكر الجاحظ أن ابا دؤاد بن حريز قال – وقد جرى ذكر شيء من الخطب وتحبير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام واحواله (تخليص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض) وقال (رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الاعراب "الافصاح" وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه) [3] ذلك ان الغريب والتعقيد

---

[1] ينظر : الجاحظ ، البيان والتبين ج٣ ص٦ .

[2] ينظر : م . ن ،ج١ ص٩٩ .

[3] ينظر : الجاحظ ، م. ن، ج١ ص٤٤ : تخليص المعاني ، أي شرحها وتوضيحها وتقريبيا .

لا يلائم السامعين، ويحوجهم الى التفكير في المعني، والتأويل للعبارات ، فتنقطع صلتهم بالخطبة والخطيب (فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المعقد، مُغرقاً في الاكثار من التكلف فما اكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع) [1] ومما يحبب السهولة إلى الخطباء أن الكلمات السهلة أحفل في كثير من الأحيان بالشعور والعاطفة من الكلمات الغريبة التي لا تحصل إلا بالمطالعة والمدارسة، فمثلا كلمة حرب أو غارة أو جوع تثير ما لا تثيره كلمة وغى أو سغب، وكلمة زوجة أقوى تأثيراً من كلمة حَنَة أو طلّه. والجنوح إلى السهولة لا ينافي قوة العبارة ودقتها وذلك كقول الحجاج في خطبته بالبصرة: (أيها الناس من اعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال اجله فعليّ ان أُعجّله ان للشيطان طيفا، وللسلطان سيفاً) فالاسلوب هنا واضح المفردات والمعاني وجيد غاية الجودة، وواف بالغرض الذي يريده الخطيب وهو التهديد والوعيد .

وهناك وسائل للوضوح هي[2] :

١.ان يكون الخطيب قد درس موضوعه وفهمه فهماً عميقا دقيقا لأنه يستطيع أن يعبر عنه تعبيرا جلياً مفهوماً، فيتجنب الغموض والإبهام والتعبير المحتمل لمعنيين، ولاشك ان الغموض في الأسلوب مرده إلى أحد امرين: إما إلى غموض المعنى في ذهن الخطيب، وإما إلى عجزه عن الإفصاح عما بذهنه وكلاهما عيب.

٢.اختيار الكلمات التي تناسب الموضوع وللسامعين، بحيث تدل على معانيها في يسر وسهولة ودقة، وتنفذ الى الذهن والعقل والقلب كما رأينا في خطبة الامام عليه السلام والحجاج وزياد.

٣.حسن عرض الجمل وتأليفها ، لتفصح العبارة عن المعنى الذي يقصد اليه

---

[1] ينظر : الجاحظ ، رسالة مدح التجار ص٤٥٩ .

[2] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص١٨٠- ١٨١.

الخطيب، فيقدم او يؤخر، ويذكر أو يحذف، ويؤكد او لا يؤكد ويَفْصل او يصل، وذلك ليكون معناه واضحا دقيقا وعدة الخطيب في ذلك ان يلتزم القواعد النحوية والبلاغية والذوق الادبي.

٤.ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا ، فالمقدمات تسلم الى النتائج والمعاني الاساسية قبل المعاني الفرعية، والمعاني كلها مترابطة متماسكة لا فجوات بينها تقطع افكار السامعين .

٥.ولابد في الخطب العامة من البعد عن المصطلحات الخاصة بالعلوم والفنون، لانها مجهولة للسامعين، ولأنها لا تلائم الموضوع. لهذا عابوا على بعض الخطباء من علماء الكلام أنهم استعملوا في خطابتهم بعض مصطلحاتهم، خطب بعضهم فقال (إن الله عز وجل بعد أن انشأ الخلق وسواهم ومكن لهم ولامثالهم فتلاشوا) فضحكوا منه.

وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال (وأخرجهم الله من باب اللّيْسية فأدخله في باب الايسية) وقال مرة اخرى: (فدل على ساتره على غامره، ودل غامره على مُنحلّه) فكاد ابراهيم بن السندي وهو من المتكلمين والخطيب ليس من المتكلمين- ينشق غيظاً-[1] من هذا الذي يستعمل في خطبة اصطلاحات لا باسلوب الخطبة.

٣. إثارة الشعور

الاسلوب الخطابي في حاجة إلى إثارة الشعور، لأن الوضوح وحده لا يكفي ، ذلك أن الوضوح يكفل الاقناع، أما قوة الاسلوب فتكفل الاستمالة وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب. وهذه القوة هي التي تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب لذلك قال احد المتكلمين ان الذي يكتفي بالاقناع دون التحميس متكلم لا بليغ اما وسائل الاثارة فهي كيف يثير الخطيب المشاعر؟

---

[1] ينظر:الجاحظ، البيان والتبين ، ج١ ص١٤٠ .الليسيه في اصطلاح المتكلمين يراد بها النفي ، واما الايسيه يراد بها الاثبات.

أ. يثيرها بقوة عاطفته، وحماسته إلى دعوتــه، لان الخطيــب المنفعــل الصــادق العاطفة، الحار الشعور، تلتهب كلماته وتصل إلى القلوب عباراته فســرعان مــا تمتزج نفوس السامعين بنفسه، وتندفع إلى الوجهة التي يريدها، ســمع الحســن البصري خطيبا يعظ، ولكن قلب الحسن لم يرق لخطبته، فقال له يا هذا ان بقلبك لشرًّا أوْ بقلبي[1].

ب.ومن وسائل الاثارة الخيال في العبارة، وذلك باختيار المفردات والعبارات التــي تثير في النفوس اخيلة وذكريات وتبعث صورا وأفكارا ملائمة للموضوع تتداعى وتتوافد وسبيل ذلك أن يتخير الخطيب العبارات المجازية كالاســتعارة والكنايــة والتمثيل ، ويجنح الى التشبيه والتخييل والمبالغة المقبولة ، وبهــذا يكســب فــي عبارته قوة وحضارة، لأن الحياة تسرى في العبارة على مقدار غناها بالمشــاعر الحية، والعواطف المشبوبة والصور الذهنية فقولنا (أي ضلع في المثلث أقصــر من مجموع الضلعين الأخرين) تعبير وجيز المبنى، صحيح المعنى، دقيق الدلالة ولكن ليس من الأدب في شيء، لان معناه عقلي صرف خال من شعور القائل، فلا يثير شعور السامع (والكلمة عند الشاعر –والاديب عامة لا تفسّــر بالعقــل وحده لكنها تفسر كذلك بالقلب والخيال. فإذا ما ترددت لفظة في ذهنه كانت لهــا اثار في قرارة نفسه، لان معناها يسري فيه ، ويعيد اليه مناظر ماضيه وذكرياته فيسترجع العواطف التي اثارتها هذه الكلمات في نفوس الناس في شتى تجــارب الحياة) [2] والخطيب محتاج لخيال مشوق يصور عاطفته، على شــرط ألا يكثــر منه، وألا يسوقه على غرار واحد حتى لا يسأم، والجماعة تتأثر بصور كثيــرة، ومتى كان الخطيب حاذقا بليغا اسكر الجميع بتصويره، فيثيــره أو يهدئــه ولــو جُمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل لأمكن أن يقام منها هرم ارفع من

---

[1] ينظر : الجاحظ ، البيان والتبين ، ج١ ص٨٤ .

[2] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص١٨٣

هرم خيوبس القديم، وإنما تؤثر الألفاظ بما ترسمه في الذهن من صور وليس لتأثيرها ارتباط بمعانيها الحقيقية، بل يكثر أن تكون الالفاظ الأقوى تأثيراً هي الأقل دقة في وضوحها مثل مساواة، وحرية، وشرف، وعرض ولكن سلطانها على النفوس عظيم. وللالفاظ وظيفة مهمة في التعبير تتجاوز ما يقتصر عليه بعضها من نقل فكرة شخص، فكثير منها مشحون بصور غير الفكرة التي تنقلها، فمثلا كلمة (أم) تدل على معنى مجرد لوالدة مجردة فلا تهز شعور قارئ، ولا سامع ولكن اذا استخدمها إنسان في حياته الخاصة أحس لها في نفسه حياة وشَعَر أنها تتدفق بعاطفة، وتذكر بالطفولة وملاعبها، وبحب الأم وعطفها فاللفظ رمز الفكرة ومعنى، وتيار زاخر بالمشاعر والصور التي اكتسبها من حياته الطويلة واحوال الذين نطقوا بها، ولكن الالفاظ تتبدل معانيها على الزمن، فمنها ما كان غنيا بالصور ثم افتقر، ومنها ما تلازمه صوره فتتلوه على الأثر، ومنها ما تتغير معانيه بتغير البيئة والناس. فإذا اردنا أن تؤثر في الجمع كان لزاما علينا أن نعرف فهمه لمعاني الالفاظ وقت الخطاب، فإن صورها حينئذ قد تغاير صورها من قبل، ولهذا يلجأ الساسة إلى تغيير بعض الأسماء الدالة على نظم معينة وان لم يغيروا النظم نفسها فسموا مثلا الضرائب الشخصية ضرائب عقارية والمعونة ضرائب غير مقررة، وللألفاظ أعمار وأطوال، ومن الخطأ أن ينكّب الاديب على معجمات اللغة يستظهر منها او يعكف على دواوين الشعر وآثار البلغاء، ليحفظ كلمات ويستعملها دون أن يتبصر فيما طرأ عليها من تحوير أو تغيير ولذلك من قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها الى أن يستعملها قبل وقتها ويضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا اشعر منك قال صاحبه:

ولم ذاك؟ قال: لأني أقول البيت واخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه[1]، ومن الَّذي يقرأ اليوم أو يسمع ان فلانا اشترى سيارة فيفهم أنه اشترى قافلة من الابل؟ أليس المعنى القديم للسيارة هو ذاك؟ ولقد يتحول اللفظ من معنى إلى نقيضه، فمثلا كلمة صُعلوك كانت تدل في الحياة الجاهلية على الفتى الشجاع المغوار السلاب الَّذي يقاسم الفقراء ما يَسلُب[2] ولكنها دلت بعد ذلك على الحقير الضعيف المستضعف. ومن امثلة ذلك قول أبي حمزة الخارجي في خطبته بالمدينة مدافعاً عن اتباعه (فمضى الشاب منهم قُدُماً -حتى التفّتْ رجلاه عن عنق فرسه، واختضبت محاسن وجهه بالدماء وعُفّر جبينه بالثّرى وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الارض، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يدٍ قد ابينَتْ عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فُلقَ يَعمد الحديد)[3] فهذا تخيل مثير، وأي تخييل أقوى من تصويره أصحابه وقد عفّرَ التراب جباههم، ونهشتهم السباع والنسور والتقطت الطيور عيونهم؟ وقد زاد هذا التصوير قوة بقوله إن هذه العيون طالما كانت تبكي من خشية الله وتقاه، وان هذه السواعد التي أبينت كانت تكأة لأصحابها في الصلاة. ومن وسائلها اختيار الكلمات القوية النفاذة إلى القلوب، في صدد الاثارة اوالتهديد أو التحميس من ذلك ما جاء في خطبة أبي جعفر المنصور[4] بعد ان

---

(1) ينظر: الجاحظ ، رسالة مدح التجار ، ص١٥٩ .

(2) ينظر: الدكتور احمد محمد الحوفي ، الحياة الشعرية من الشعر الجاهلي ص ص٢٩٩-٣٠٦ .

(3) ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ص٢٥٩ .

(4) ابوجعفر المنصور : هو عبد الله بن محمد بن علي ، ولد سنة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م ، وامه سلامة البربرية بويع بالخلافة في اليوم الذي توفي به أبو العباس السفاح سنة١٣٦ هـ وبنى مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ توفي سنة ١٥٨ هـ وهو ابن ٦٨سنة ودفن ببئر ميمون ، ينظر : اليعقوبي ، تأريخ اليعقوبي ، ج٢
ص ص٢٥٤-٢٧٢ ، الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ، ج٩ ص١ض٥٤ . ابن كثير ، البداية والنهاية، ج١٠ ص١٢٤

قتل أبو مُسلم الخراساني[1] (ان من نازعنا عُرْوَةَ هذا القميص أجْزرْناه خبيّ هذا الغَمدْ)[2] فكلمة (اجزرناه) أقوى من (قطعنا رأسه) مثلاً لأنها تذكر بذبح الجزار للماشية في سرعة وفي غير مبالاة بل في مسرة وانتظار للنفع، (وخبيّ هذا الغمد) كناية عن السيف فيها تهويل، ومن ذلك أيضاً خطبة الإمام علي كرّم الله وجهه لما علم أن النعمان بن بشير أغار من قبل معاوية على عين التمر ودعا عليّ عليه السلام الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا (يا أهل الكوفة. كلما سمعتم بمَنسِر من مناسر أهل الشام أظلّكم أنجحَر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه، أنجحار الضبّ في حُجْره، والضَّبعُ في وِجارها... ماذا منيت به منكم، عُميٌّ لا تبصرون، وبكم لا تنطقون، وصم لا تسمعون، إنا لله وأنا إليه راجعون)[3] فهو يحقرهم لأنهم يخافون من المنسر (عدد صغير من المحاربين) ويزيدهم تحقيرا بقوله (انجحر... انجحار الضب والضبع) وذلك يدل على سرعة الفرار الى المأوى، وعلى الرعب، وعلى حقارة الشأن.

ج. وكذلك اذا كان الخطيب يعمد إلى التأثير السريع فإن الجُمل القصار أنسب لأنها سريعة الأداء، سريعة الفهم، متلاحقة الأثر، مثلها مثل الطرقات المتوالية على الحديد المُحمى، تؤثر فيه وتشكله، والمراد بالجمل القصار أن تكون وسطاً بين القصر والطول، لأن العبارات الطويلة بطيئة التأثير مملة للسامع، مجهدة للخطيب في إلقائها، والعبارات القصيرة المفرطة في القصر متلاحقة مفاجئة

---

[1] ابو مسلم الخراساني : هو عبد الرحمن بن مسلم ، مؤسس الدولة العباسية واحد كبار القادة ولد في ماه البصرة سنة ١٠٠هـ/٧٧١م اتصل بابراهيم بن الامام محمد من بني العباس فكان داعيه بني العباس في خراسان قتله أبو جعفر المنصور برومة المدائن سنة ١٣٧هـ/ ٧٧٥م ، ينظر : اليعقوبي ، تأريخ اليعقوبي ، ج٢ ص ص٢٥٦-٢٥٧ ، الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ١٥٩ . ابن خلكان، وفيات الاعيان ، ج١ ص٢٨٠.

[2] ينظر: الطبري، تأريخ الرسل والملوك ، ج٩ ص ٣١٣ .

[3] ينظر: الطبري، تأريخ الرسل والملوك ، ج٦ ص٧٧ .

مجهدة للسامع في تتبعها، من الجمل القصار قول زياد بن ابيه في خطبته بالبصرة (قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العُذْر، وتُغمضون على المختلس، كل امرئ منكم يَذُب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبه، او لا يرجو معادا وقد احدثتم احداثاً لم تكن، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غَرّق قوماً غَرّقناه، ومن احرق قوماً احرقناه، ومن نَقَّبَ بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حيّاً فيه)[1] .

د. والتشابه[2] والتطابق لهما أثر عظيم في أثارة الشعور لان التماثل او التضاد يشعر بالفارق ويوضح المعنى ويفسح المجال للخيال. من التشابه قول زياد بن ابيه في خطبته السابقة (وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوما غرقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه) ففي هذا التهديد مشاكلة بين العقاب والجرم، وتخيل مفزع، وخاصة في تهديده بشق صدر اللص الذي ينقب البيوت، ويدفن لص المقابر حيا في المقبرة التي كان ينبشها. ومن التطابق قول الامام علي عليه السلام وقد أغار الضحاك بن قيس[3] على الحيرة من قبل معاوية واستنجدهم الامام علي رضي الله عنه فتقاعدوا (أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوحي الصم الصّلاب وفعلكم يُطمِع فيكم الاعداء، تقولون في المجالس كيْت وكيْت فإذا جاء القتال قلتم حِيدي حِياد)[4] هنا تطابق بين اجتماع

---

[1] ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ص٢١٦ .

[2] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص١٨٩- ١٩١.

[3] الضحاك بن قيس الفهري : هو ابو امية ، او ابو أنيس ، الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القريشي سيد بني فهر في عصره ، شهد فتح دمشق ، وشهد صفين مع معاوية ولاه معاوية على الكوفة ثم نقله الى دمشق قتل في مرج راهط سنة ٦٥هـ (ينظر : ابن قنفذ القسنطيني ، كتاب الوفيات ، ص٧٥ ،الزركلي ، الاعلام ج٣ ص٣٠٩)

[4] ينظر : ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ص١٥٢ .

الابدان وافتراق القلوب، وبين قوة كلامهم وضعف دفاعهم، وبين جرأتهم على الخوض فيما لا حق لهم فيه وجبنهم اذا جد الجد.

هـ. ومما يحقق للخطيب التأثير، وينفخ في اسلوبه حياة متجددة أن يراوح بين الأخبار والإنشاء، حتى لا يكون أسلوبه على وتيرة واحدة فيمل، وحتى يجدد نشاط السامعين بهذه المغايرة، ويصور في دقّةِ أحاسيسهِ ومشاعره، فإن المعاني المنوعة والانفعالات المختلفة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها. عليه أن يتخير الأسلوب الملائم للمعنى، من خبر وأمر، ونهي واستفهام وتعجب، لأنه بذلك يحقق ما سبق، ويحقق شيئاً آخر هو أن هذه المغايرة في الأسلوب ، تستتبع مغايرة في نبرات الصوت وطريقة الالقاء، والوقفة والإشارة، وهذا كله عون على الوضوح من ناحية وعلَى التأثير من ناحية، من ذلك قول الامام علي عليه السلام في خطبة له (أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا اطمع في نصركم، ولا اوعد العدو بكم، ما بالكم ؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم اقول بغير علم؟ وغفلة من غير وروع؟ وطمعاً في غير حق)[1] فهنا أخبار بتكذيبه لهم ويأسه من نصرهم مع تعجب من حالهم، ثم دراية بهم، ثم تعجب وانكار لقولهم بغير علم وطمعهم في غير حق.

ومن ذلك قول أم الخير بنت الحريش تحرض جند علي يوم صفين (صبراً يا معشر المهاجرين والانصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، فكأني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، لا ندري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعما قليل ليصبحن نادمين)[2].

---

[1] ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ص١٥٣ .

[2] ينظر: القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ص٢٤٨ .

٤. الموسيقى

من صفات الاسلوب الخطابي الرفيع ان يكون موسيقيا رنانا ليكون خفيفا على اللسان، حسن الوقع في الآذان.

وسائل الموسيقى

ولقد تساعد على موسيقى الاسلوب عدة عوامل منها[١] :

أ. انسجام الحروف وحلاوة جرسها وائتلاف الكلمات وتلاؤم فقرها وايقاعها، فتطول الجملة وتقصر طوعاً لحركة الفكر وحالة العاطفة.

فعاطفة السرور تقتضي الابطاء، وعاطفة الغضب تقتضي الاسراع والتدفق وخطبة المحامي وهو يدلل ويطبق القانون غير خطبته وهو يستميل القضاة ويستدر اشفاقهم، وخطبته السياسية وهو يناقش نصوص معاهدة او برنامج حكومة غير خطبته وهو يستثير الجمع.

ب. ولهذا حلا السجع والازدواج في بعض الخطب مادام بريئا من التكلف كما ترى كثيرا من ذلك من خطب الامام علي رضي الله عنه قال ابو هلال (لا يحسن منثور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد البليغ كلاما يخلو من الازدواج)[٢] وقال (واعلم ان الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو ان تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك السجع فيها، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد) واذا كان السجع عفواً أولاً أثر فيه للتكلف والتعمل، كان له وقع حلو في الاذن وسلطان على النفس (واعلم أن السجع لو كان عيباً لكان كلام الله معيباً لانه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن واكثر خطب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مسجوع كقوله "إن مع العز ذلاً، وان مع الحياة موتاً، وان مع الدنيا آخرة

---

[١] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص١٩٣- ١٩٥.

[٢] ينظر: ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص٢٤٩ .

وان لكل شيء حسابا، ولكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً) فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه، وكذلك خطبه الطوال كلها. فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين، فأما التكلف المستحسن فأي عيب فيه؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لابد فيه من تكلف اقامة الوزن، وليس لطاعن ان يطعن [1]فيه بذلك وأما قوله عليه الصلاة والسلام، لمن استنكر حكمه في الجنين بغرة وقال : أأدى[2]من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، ومثل هذا يَطلّ؟ اسجعاً- كسجع الكهان فأنما انكر عليه السجع الذي يسجع الكهان أمثاله ليموهوا به على الناس، وهو يريد ان يؤكد تحريم العمل بأقوال الكهان، والخضوع لكلامهم وأحكامهم) والامثلة كثيرة على شيوع السجع في الخطب.

٥.القياس المضمر

يكثر القياس المضمر في اسلوب الخطبة. وهو قياس حذفت احدى مقدمتيه مثل: هذا الرجل مجد فهو ناجح حذفت المقدمة الكبرى (كل من يجد ينجح) ومثل كل المعادن تتمدد بالحرارة، فالنحاس يتمدد بالحرارة حذفت المقدمة الصغرى وهو (والنحاس معدن) ولعل السبب في شيوع هذا الأسلوب في الخطابة أن الخطيب يخشى أن يناقش السامعون المقدمة المحذوفة فيسقط أو يضعف دليله الخطابي، أو أنه يعتمد على ذكاء السامعين وبديهتهم في إدراك المقدمة المحذوفة والربط بين المقدمتين، أو أنه يغالط السامعين بأن يوحي اليهم ويلزمهم بأنهم موقنون بصحة المقدمة المحذوفة، لأنها حقيقية يجب أن يسلموا بها، على أن المقدمة قد تحذف لانها معلومة، فلا مدعاة لذكرها أو إثباتها، فالمستمع للخطبة يعلمها ويقدرها بداهة كأن نريد أن نستنتج ان فريق الكرة نال الكأس فيكفي أن نقول إنه تفوق على منافسه في اللعب لأنه لا فائدة في قولنا إن المتفوق ينال الكأس إذ أن ذلك معلوم بالعرف والعادة.

---

[1] ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ص٤٢ .

[2] ينظر : م. ن، جـ١، ص٤٢ .

هذا القياس المضمر أصلح للخطابة كما قرر أرسطو في قوله (لاشك ان المنهج في الخطابة يستند على الأدلة والدليل برهنة، لأننا إذا قبلنا دليلاً من الأدلة افترضنا أنه فرغ من البرهنة عليه، ومن ناحية اخرى البرهنة الخطابية هي القياس المضمر، والقياس المضمر هو ارقى الادلة وأفضلها، وهو نوع من القياس العام)[1] وقد قسم أرسطو الأسلوب الخطابي بالأسلوب المتصل والأسلوب المقطع، ولكن ذلك لا ينفي أن القياس الكامل قد يوجد في الخطبة، فمثلا خطب أبو جعفر المنصور بعد قتله ابو مسلم الخراساني كما ذكرنا ذلك فقال (إن من نازعنا عروة هذا القميص اجزناه خبئ هذا الغمد)[2] وإن أبا مسلم قد بايعنا ، وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا) والقياس الكامل هنا هو: كل من غدر بنا قتله ابو مسلم. وأبو مسلم غدر بنا فهو يستحق القتل، ومن القياس المضمر الذي حذفت فيه المقدمة الكبرى، قول داود بن علي[3] في بني أمية لما سقطت دولتهم (تباً تباً لبني حرب بن امية وبني مروان، ركبوا الاثام، وظلموا الانام، وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم، فأتاهم الله بياتاً وهم نائمون)[4] فالقياس هنا عصوا الله فأهلكهم. والمقدمة الكبرى (كل من عصى الله اهلكه) محذوفة لأنها مفهومة معلومة .

---

[1] ينظر : آرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة ، تحقيق :عبد الرحمن بدوي ،دار القلم ، (بيروت، ١٩٧٩م) ص٩٤ و٢٠٧و٢١٢ .

[2] ينظر : الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ، ج٩ ص١٢٦ .

[3] داود بن علي : هو داود بن علي بن عبد الله بن عباس ويكنى ابا سليمان وهو من خطباء بني هاشم ، وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة ،وله كلام كثير محفوظ وقال ابن قتيبة في المعارف ص١٦٣ عند ذكر عمومة ابو العباس السفاح فأما داود فكان خطيبا جميلا يكنى أبا سليمان وولي مكة والمدينة لابي العباس وأدرك من دولتهم ثمانية أشهر وتوفي سنة ١٣٣هـ(ينظر: الجاحظ، البيان والتبين ،ج٢ ص٢٤٥ ، اليعقوبي ، تأريخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٤٢)

[4] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٩، ص٣٠٧. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، جـ٣، ص٩ رقم ٢.

المبحث الثالث

الارتجال والاعداد

الارتجال[1] : هو التدفق بالكلام عفو الخاطر من غير اعداد وقد كان ميسوراً وطبيعيا عند العرب، إذ أن اكثر خطبهم كانت عن بديهة وارتجال وكأنها الهام، أما اليوم فهو نادر في الامم كلها لأن الخطيب العصري، لا يقدر أن يخطب في موضوع يجهله، فإن كان على علم به لكثرة ما فكر فيه أو قرأ عنه، أو سمع به فإنه كالمُعِدّ له، وإن كان خالي الذهن عن الموضوع عجز عن الاسترسال فيه خطيباً، فارتجال الفكرة يكاد يكون مستحيلا، وارتجال التعبير عن فكرة مدروسة ليس كثيرا: فالارتجال آفة الخطابة لأنه يلقي المعنى دون أن ينضج بالتفكير، وليست الخطابة اليوم –كما كانت في الزمن القديم –كلاماً يُلْقى من وحي الفطرة، بل هي اليوم فن له قواعده وأصوله، فمن واجب الخطيب أن يدرس موضوعه ويعده، أو يرسم معالمه وطريقة تناوله ثم يرتجل، ومما يساعده على الارتجال أن يكون جريء القلب، غزير الاطلاع، سريع البديهية، حاضر الذهن ثريا باللغة، واثقاً بنفسه وبتوفيقه. ولقد يضطر الخطيب إلى الارتجال اضطراراً، كأن يكون في حفل ويدعى فجاءة الى الكلام، أو في جمع ويحدث حدث يستدعي منه المقال او يكون قد أعد خطبته ولكن حدث ما أنساه بعضها فيرتجل وكأن الخطبة في ذاكرته.

ومن مزاياه فوق ذلك أنه يعين الخطيب على تغيير خطبته مطابقة لما يجدُ من أمور، لأنه إن تقيد بما أعده وحفظه أفلتت منه فرص كثيرة من الخير أن ينتهزها، وقيد نفسه بمتابعة تفكيره هو لا تفكير السامعين، على أن بعض الخطب لا يلائمه إلا الارتجال، فحيثما كانت إثارة واستمالة وعاطفة متدفقة، كان الارتجال وسيلة الخطيب فالخطبة الحربية في الميدان والخطبة الدينية الواعظة، والناحية التأثيرية من الخطبة القضائية والسياسية وخطب التهنئة والترحيب، هذه كلها يجب ان تكون مرتجلة لا

---

[1] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص١٩٧– ١٩٨.

معدة لأن الإعداد يضعف تأثيرها، ويحول بين الخطيب والتدفق، ويغله عن الاستغلال الظروف الطارئة ومتابعة نفسية السامعين .

الإعداد : وللإعداد مزايا، لأن الأساليب المرتجلة أقل بهاء ورونقاً من المعدَّة، أما الافكار المرتجلة فإنها فجة مبتسرة إذا قيست بالأفكار المدروسة الناضجة المختمَرة ثم إن ظهور الخطيب أمام الجمع بمظهر المجازف الذي لم يُعِد القول اعتداد النفس، واستهانة بالحاضرين، وتبجح بعدم الاهتمام، ودعوى أن خاطر الخطيب أسرع من خواطر الناس، وهذه كلها صفات لا ترضيها الجماعات ولقد يعسر على المرتجل تفكيراً وتعبيراً أن يعالج الموضوع وأن يصل منه إلى نتيجة فهو كساع إلى الهيجا بغير سلاح، أو كهائم لا يعرف وجهته، ولا المسالك اليها، ويرتجل الكلام وليس فيه سوى الهذيان من حشو الخطيب، وكان كثير من البلغاء يعدون خطبهم ويهذبونها ويتمرنون على إلقائها، هكذا يجب أن يتهيأ الخطيب للخطبة قبل فترة، وعليه أن يتدرب ويتمرن ولذلك كان صاحب الخطب، او صانع الخطب قوياً في القانون والبلاغة والتحرير فيكتب الخطبة للمتقاضين، وهم يحفظونها عن ظهر قلب ليفرغوها من ادمغتهم امام القضاة[1]، وكان الارتجال في الحياة العربية الجاهلية أكثر شيوعا من الإعداد أو أكثر من ارتجال العصور اللاحقة، والجاحظ (عنده أن البلاغة هي الخطابة أو أن الخطابة في الأقل أكبر مظهر من مظاهرها) ويثبت الفضل للعرب في الارتجال وقلة المعاناة، وينسب إلى غيرهم التحضير والاعداد، ولكنا نخالفه في أن يشمل هذا الحكم الحياة الاسلامية فإن الاعداد فيها كان اكثر شيوعاً من الارتجال وقد كان واصل بن عطاء يرتجل وغيره يحضر للخطبة، وقد حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس عن السقيفة فيما بعد وجاء في حديثه أنه كان يعد كلاما ليقوله في الجمع أو أنه كان يعد مقالة[2] قد اعجبته يريد أن يقولها قبل ابي بكر الصديق

---

[1] ينظر : الدكتور ابراهيم سلامة ، تأريخ البلاغة والنقد ، ص١٤ .

[2] ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ص٣٣٩ .

رضي الله عنه، والإعداد في الشعر وفي الكتابة سمة للانتاج البليغ في كثير من الأحيان، والناس لا يسألون عن هذا الانتاج كم يوم تم، وانما يُعجبون به ويمتدحون صاحبه، وما من أحد يسأل اليوم: كم ساعة أو يوماً كان يقضيها المتنبي أو شوقي في نظم القصيدة أو علي بن ابي طالب عليه السلام في تنسيق الخطبة او الجاحظ والمنفلوطي في تحبير المقالة ، فرب بيت منقح خير من ألف، ورب سطر مجيد خير من كتاب. وإذا كان الارتجال ضرورياً في بعض الخطب فإن الاعداد ضروري في بعضها الآخر على تفاوت في طريقته والحاجة اليه، فالخطب السياسية لا مندوحة من إعدادها، وأي خطيب سياسي لا يعد خطبته ايجاداً وتنسيقاً فالاخفاق نصيبه، على أن بعض الخطب السياسية يعوزها الإعداد ايجاداً وتنسيقاً وتعسيراً، لحاجتها الى دقة التعبير ووزن الألفاظ كخطب المعاهدات وبعض خطب المؤتمرات الدولية فهذه تعدُ إعداداً كاملاً. والناحية التطبيقية على القانون في الخطبة القضائية – لابد من إعدادها إعدادا كاملا أيضا تتجلى فيه الثقافة القانونية والثقافة العامة.

الجمع بينهما

من الخير إذاً أن يجمع الخطيب بين الإعداد والارتجال، فيعد موضوعة ثم لا يتقيد بما أعد، بل يتصرف كما تملي عليه الظروف، وحينئذ تمده ذاكرته بما قد اعده وتسعفه بديهته بالجديد الذي لم يعده، وهناك طرق[1] شتى للخطباء في اعداد خطبهم ولتكون ملائمة لميلهم واستعدادهم وتجاربهم فمنهم من يكتبها وينقحها كأنها مقال، او بحث ثم يستظهرها، ومنهم من ينطق بالعبارات كأنه يملي، ثم يقيد بعد ذلك، ومنهم من يستعد في تفكير صامت كأنه يسمع صوتاً من باطنه، ومنهم من يعد جالساً، ومن يعد واقفاً او متمشياً وخير للخطيب الذي أعد خطبته كتابة أو نطقاً ان يخط ما تجود به قريحته ثم يتأنق في تهذيبها وهو يبيّضها. وربما لا يحتاج الخطيب الى كتابة خطبته بعد التفكير فيها وتنسيقها بل يكتفي بتقييد عناصرها، إن كان من ذوي البديهة

---

[1] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص ١٩٧-٢٠٥.

الحاضرة والمرانة. وخير طريقة للاعداد، ان الخطيب يُعِد خُطبتـــه ان كانـــت ممـــا يحتاج الى إعداد إعداداً كاملاً ثم يتركها ويرتحل، أو يضعها أمامه مكتوبة، ويكتفـــي باللمح الخاطف بحيث يستوعب الصفحة في نظرة دون أن يشعر الجمهور بأنه يلمـــح لأن الموضوع ما دام واضحا في ذهنه ومدروسا، فإنه ينبع من عقلـــه البـــاطن دون عناء ولكنه في طريقة اللمح هذه يكون أكثر وضوحا وأسرع نبعاً وفيضاً.

obeikandl.com